المجنونة

للكاتبة الفرنسية ماري بشيري

للسيد صلاح الدين المنجد

كانت تغنى أنشودة أخذتها عن أمها برقة وحنان وترنو إلى السماء الصافية صفاء الأمل الباسم ، وتنظر إلى سفير الأشجار المبعثر على حفافى الطريق ... وتصغى إلى الذكرى تهمس فى أذنها حديث الماضى إذ رحل زوجها إلى الجزائر ليرفع فيها العلم الفرنسى الجميل ، ويقهر أبناء الشمس الجبابرة الأشداء

وأغرقت فى صمت عميق ملؤه الغموض والحيرة ثم راحت تناجى نفسها وتقول : « عجبت أشدّ العجب لمن يزعم أن الحياة هى منبع الألم ومصدر الأسى ... ألا ينظرون إلينا كيف نعيش فى رخاء من العيش راضين مغتبطين لا يعرف الشجو إلينا سبيلاً ؟ أو لأولئك الذين يحيون حياة تموج بالنعيم وتشرق بالبشر ... لا يفقهون للشقاء أو الحزن معنى ... أما لقيت برنارد بعد أن ابتلع اليمّ أبى ، وماتت أمى حزناً عليه ، فأحببته وأحبنى ، والتقت أحلامه بأحلامى ، وتمتينا على الأمانى ثم زفت إليه ؟

كنت أتمنى أن تكون لى دار إليها آوى ، وزوج أفضى إليه بحديث قلبى ، وطفل أدخل السرور بمرآه لنفسى .. فرزقت الزوج ، وشُيّدت الدار ، وجاء الطفل وابتسمت لنا الحياة ! ... »

وأرسلت زفرة عميقة وهى تقول : « ساء ما يزعمون »

كانت جورجيت تحس السعادة وتشعر بالغبطة ما ينغص عيشها إلا أن زوجها بعيد عنها ما تراه ولا يراها ... إنها لتذكر ذلك اليوم الذى دخل فيه عليها ، وقال بصوت هادئ حزين : « سأذهب إلى الجزائر يا جورجيت مع رفاق صباى ، لنرفع هناك علمنا ، ونمكن الأمر لرئيسنا ... فلا تبك يا عزيزتى ، لقد وُعدت أن أكون قائداً إن أحسنت البلاء ... ثم أعود إليك بعد حين راضى النفس ، مطمئن الخاطر ... لا تبك يا عزيزتى ... لن أمكث هناك إلا قليلاً ... إلى اللقاء ... » ولكن ها هى ذى خمسة أعوام تمر وبرنارد لا يزال بين أبناء الشمس الأقوياء ...

وكانت نفس جورجيت تفيض أملاً بالحياة والرجاء . لقد رزقت الطفل فنشأته بعناية وعطف وربته برأفة وحنان ، ولم تدع لليأس سبيلا إلى قلبها ، ولم تترك للحزن مدخلا إلى نفسها . وكان برنارد يحدثها فى رسائله اللاهبة بالحب ، الطافحة بالشوق ، المملوءة بالقبل ، أحاديث تبعث فيها النشوة والفرح ، فتنتظر بصبر وثبات . كان يحدثها عن الطبيعة الفاتنة التى تستهوى النفس وتسحر الفؤاد ، شأن كل ما فى الشرق ، وعن أولئك الجزائريين الذين عشقتهم الشمس فغمرتهم بفيض من قُبلها اللاذعة ، وتركت آثار تلك القبل على الوجوه ... وكان يحدثها عن تلك المساجد ذات المآذن التى تناجى الله ليل نهار ، وتلك المحاريب التى رُصّعت بالجوهر وازينت بالفسيفساء ، وتلك الصحراء التى غمرها النور فراحت تبسم وتضحك ... وكان يحدثها أيضاً عن التلاع التى رأوها ، والجبال التى صعدوا فيها ، أو يذكر لها ما رآه فى لبنان القائمة بين غابات الزيتون ، وفى قسطنطين ذات الأبنية العتيقة التى شُيّدت فى عالم قديم قد ابتلعه العدم

وكانت جورجيت تعشق الشرق وترهبه ... كانت تعشقه لأنه كان مسرحاً لأروع الحوادث وأعظم المغامرات ، لأن فيه تلك الحدائق المسحورة كما يقولون ، وتلك القصور الفاتنة التي تمتزج فيها نغمات الناي بآهات الحب وأقاصيص الحرب ... ثم لأنه سيكون سبباً في نجاح زوجها وطريقاً إلى مبتغاه . وكانت ترهبه لأن فيه قوماً مغاوير يبتلعون الجن ولا يخافون ... فكان يساور نفسها قلق ملح وشك عميق ، ويستولي عليها من آن لآخر الخوف والذعر فتتمنى رجوع زوجها ، لتعيش في كنفه ، وتتمتع به ، وتحيا بقربه حياة آمنة ناعمة براحة وسكون ...

* * *

— يا سيدتي ، ياسيدتي ، لك رسالة من الجزائر

فهبت جورجيت يفتر ثغرها عن ابتسامة حلوة ترقص حولها المنى واندفعت نحو الباب ، ونفسها تطفر من الفرح وتنزو من النشوة ، لأنها ستسمع اليوم حديثاً عذباً ممتعاً ... وجاء ساعي البريد يقدم رسالة ختمت بالشمع الأسود ، فتراجعت وهي تقول:

— ليست لي ... ليس هذا خطه ... إنه خط طفل حديث عهد بالكتابة ...

قالت إحدى صواحبها :

— خذيها يا ابنتي فإنها لك . من يدري ... ربما أصبح برنارد قائداً ... ربما أنعم عليه بوسام الصليب ... ربما ظهر جنودنا على أولئك الشرقيين وخذلوهم ، خذيها يا ابنتي ... !

— آه ! ليعود إلي ، تلك أمنيتي يا أختاه ...

وأخذت جورجيت الرسالة بيد مرتجفة ، وقلب خافق ، وعادت إلى غرفتها فإذا بوليدها يتخطى حصاناً من الخشب ويقول :

— أماه ! أماه ! ألا تذهبين إلى الجزائر ...

فغشي وجهها العبوس ، ثم مزقت الغلاف قلقة مرتابة وقرأت :

« سيدتي ... ...

أنا لا أعرفك ... بل أعرفك كثيراً ، لأن صديقي برنارد كان يحدثني عنك أحياناً ... أواه ياسيدتي ! إن الحرب لمصيبة كبرى ... إنهم يرسلوننا لنفتح البلاد ونؤدب العصاة ، ويقدموننا للموت . ما أتعسنا ! من يفكر بنا نحن الذين ندفع دماءنا ثمناً للنصر ... من يردد أسماءنا أو يذرف الدمع من أجلنا إن غيبتنا رمال هذه الصحراء المرهبة ؟ ومن يرسل الآهات إن أطفئت شعلة حياتنا على هذه السرر الخشبية التي شهدت مصرع الألوف قبلنا ... ؟ »

فاستوحش قلب جورجيت ، وانقبض صدرها وقالت :

— لكن .. لكن أنا لا أفهم عنه ما يريد ..

وتابعت القراءة

« ما أدري ياسيدتي كيف أكتب إليك .. وما أدري كيف أخبرك بما وقع لزوجك . . ولكنني أقسمت أمامه لأخبرنك ... إصغ إلي ياسيدتي : في موقعة قامت بيننا وبين هؤلاء الجزائريين ، وقع برنارد جريحاً يترسب في دمه . فضمدت جراحه ، ولكنه بقي متألما أشد الألم . لا يأكل إلا قليلاً ، ولا ينام إلا لماما ، وكان يفكر بك ويحدثني عنك . فأرسله قائدنا الأعلى ليعيش تحت الخيام ، ويستجم من العناء ولكن وآسفاه ! لقد أصابته الحمى .. الحمى التيفيه التي لا ترحم أحداً هنا . فصبراً ياسيدتي ، عيشي لطفلك الصغير وأفيضي عليه حنانك ورحمتك ، وتعهديه بعطفك ورعايتك فهو خير عزاء لك.. إن برنارد قد مات .

جوزيف ر ...

فشدهت جورجيت ، وجحظت عيناها ونادت :

— مات .. ؟ مات .. ؟ كلا من المستحيل .. أيموت برنارد وهو في نضارة الصبى وبكرة الشباب ؟ أيموت وقد كان قوى الأيمان بالحياة ، عظيم الأمل بالسعادة ؟ .. أنا لا أصدق .. إن هـذا إلا كذب ومين .. !

وراحت تبكى بكاء محزناً تتفطر له القلوب ، ثم نظرت إلى أسفل الصفحة فاذا فيها كلمات مرتعشة عليها علائم قطرات من الدمع . فقرأت :

« عزيزتى جورجيت ! لقد حم القضاء .. إنتهى كل شيء ! آه ! لن أراك ياعزيزتى أبداً ، ولن ترينى .. أنا أموت ... وداعاً جورجيت ... وداعاً طفلى .. وداعاً .. أيها الأحباء .. ! » برنارد ...

وتفجر الدمع من عينيها .. وراحت تلطم الوجه وتعول ، وتنادي وتصرخ ثم تئن وتقول :

— أوّاه ! أواه .. هاهى ذى النواقيس ترن ، فيملأ الفضاء رنينها ، تعلن أن غداً يوم الأموات ! أوّاه ! إن المقابر ستكون غداً مليئة بالناس ، يحملون طاقات الورد وعناقيد الزهر ، لينثروها فوق القبور ، ويذكروا الأهل والأحباب !

أما برنارد ، فواحسرتاه .. ! إنه ينام هناك .. فى الصحراء .. فى ظلال النخيل .. وحيداً لا صديق بجانبه ولا حبيب !

أوّاه ! إنه لصعب أن يذهب المرء وحيداً إلى عالم مجهول !

أصحيح أن برنارد قد مات ؟ هه ... أهكذا قُضى علينا نحن ... أن نعيش فى الظلمة ... بصمت وسكون ... ما نكاد نتذوق طعم الهناء حتى نرزأ ، أو نعرف معنى السرور حتى نُصاب ؟

لكن ... كيف يموت برنارد ... ؟ كلا إنه لم يمت ... ! أنا أعلم ذلك ... أتخوننى الحياة ... ؟ ألا تخاف منى ؟ أنا جورجيت ... ! مات ... هه ... سأحطم كل شيء من أجله . خذوا ... أنظروا أيها السادة ... أنا قوية ... خذوا ... وانظروا ... !

وراحت جورجيت ترسل أصواتاً حزينة كخوار الثيران ... وأخذت تطوف بالغرفة تهذى وتصرخ ، ثم عمدت إلى المنضدة فحطمتها ، وإلى الكتب فمزقتها ... وأشعلت النار فى الأثاث ... والتف حولها نسوة حاولن أن يهدئن من اضطرابها فما استطعن ، فبكين لبكائها ... ورثين لها . ثم أمسكت طفلهـا ورمت به الأرض فشج رأسه ؛ وهبطت إلى الشارع تبكي وتضحك وتنادى . الانتقام الانتقام . وهكذا سلب عقلها ، وأصبحت ما يفارقها الجنون إلا ساعة فى النهـار أو بعض ساعة ، تقضيها فى البكاء أو الصمت ... فاذا ما عاد إليها جنونها قامت تنفث وتضحك ... وتكلم الهواء وتستصرخ المارة وتتوعد بالانتقام .

* * *

ما أدرى كيف انتهى بها الطواف إلى الجزائر وما أدرى كيف استطاعت ذلك ... وأكبر ظنى أن سفينة أوصلتها رحمة بها وشفقة عليها . ولقد حدّث من رآها بأنها مذ وطئت أرض الجزائر عوّلت على الانتقام من أهلها . وكانت ترود ماأقفر من الأماكن وأوحش من الجبال ، وتتوغل فى الصحراء ، وهى تنوح وتبكى ، أو تسب وتشتم . ولقد حاول نفر من بنى جنسها أن يكلمها فما استطاع وأراد إرجاعها فأخفق . رأوها بعد أيام عادية نحو جوف الصحراء وقد تمزق ثوبها وعريت أقدامها ، وانتصب شعر رأسها ، وهى تضحك لمن تراه وتقول : إنه ينادينى ألا تسمعون ؟ فما رجعت بعد ذلك اليوم وما رأوها أبداً

مسكينة ! لقد غيبتها رمال الصحراء !

صلاح الدين المنجد